أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

- ٨ -

مدرستا بغداد والأندلس وموقف ابن جني منهما

أما مدرسة بغداد : فقد قامت بعد المدرستين البصرية والكوفية ، لما تأسست بغداد وأخذ علماء المدرستين ينزحون اليها ، فكانت بيآتها العلمية ميداناً للصراع الثقافي بين المذهبين ، وكانت المناقشات العلمية جد حادة بين الفريقين . وعلى الرغم من أن تلك المناقشات قد قربت بين وجهات نظر الفريقين إلا أنها أضعفت المدرسة الكوفية التي كانت - لو ازدهرت - ترفع من شأن البيان العربي ، أو تبعد النحو عن قسوة المنطق وقساوة الأقيسة والتعليلات . وقد كان من نتاج هذه المدرسة أن ألفت بعض الكتب التي عمد أربابها الى البحث في مسائل الاختلاف بين المدرستين ككتاب الإنصاف في مسائل الاختلاف بين المدرستين لابن الأنباري وغيره .

يقول العلامة طه الراوي : لما أنشئت بغداد كان الكوفيون أسبق الناس اليها لمكانة الكوفة من بغداد من الوجهتين السياسية والجغرافية ، ولهذا وجدنا أن علماء الكوفة اتصلوا بقصور الخلفاء والأمراء واحتلوا الصدور من حلق تدريسها ومحافل آدابها ، فكان الكسائي عند الرشيد ، والفراء عند المأمون بالمكانة السامقة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان مذهب الكوفة ما علمت من التساهل في التأصيل والتفريع ، ومن ثَمَّ وجدنا تلاميذهم من البغداديين مولعين بالروايات الشاذة يتفاخرون في النوادر بالترخيصات ، واعتمدوا على الفروع ولم يأبهوا للأصول ، ومن هنا تولد مذهب مضطرب النواحي كثير التعاريج عرف بمذهب البغداديين ، ولما كان هذا المذهب أحطّ من أبيه الكوفي طرحه الجمهور وما أقاموا له وزناً [1] » .

والأستاذ العلامة الراوي قاس في حكمه على المدرسة البغدادية ، ولا عجب فانه كان من الأعلام المتشددين الحريصين على العناية بحفظ تراث اللغة ، كما ورد عن فصحاء أربابها ، لا أهل اللغات النادرة ، والروايات الشاذة ، وإلا فان المدرسة البغدادية على الرغم من تساهلها لم تأت بمذهب منحط ، ولا كان الكوفيون في مذهبهم على تلك الصورة البشعة التي صورها المرحوم الراوي ، ولكنه كما قلنا كان شديد الاعتزاز بعروبته رأى في المذهب البصري المذهب الصحيح القوي السالم فأحبه ودعا اليه وإلا فان نحاة مدرسة بغداد على الرغم من تساهلهم ومن اعتمادهم على طريقة مدرسة الكوفة فانهم قد اتصلوا بنفر من علماء مدرسة البصرة في منتصف القرن الثالث حين أخذ هؤلاء يهاجرون الى بغداد وينشرون مذهبهم فاتبعهم البغداديون في كثير من مسائل العربية [2] .

وقد ظلت المدرسة البغدادية ناشطة فترة طويلة من الزمن الى أن تغلب المتغلبون على الخلافة الاسلامية العباسية في بغداد كالحمدانيين والسامانيين والطولونيين والبويهيين والمرداسيين والسلاجقة وغيرهم ممن أرادوا أن يجعلوا في عواصمهم البعيدة عن بغداد حركات علمية فضعفت مدرسة بغداد بعض الضعف وظلت تصاول وتجادل معاكسات الدهر الى أن احتلها المغول ففرقوا شمل علمائها وقضوا على كثير منهم أو ألجأوهم الى الشام ومصر والمشرق .

(١) راجع تاريخ علوم اللغة للمرحوم الراوي . ص ١٢٨

(٢) راجع التصريح على التوضيح ٢ : ١٧٣ ، ٢٧١ ، ٣٧٣ . وهمع الهوامع للسيوطي ١ : ٢٣٥ و ٢ : ١٤٩ ومغني اللبيب لابن هشام ١ : ٩٧ و ٢ : ٨٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن أشهر نحاة المدرسة البغدادية :

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري الموزي الكوفي (— ٢٧٦) الأديب الكاتب العلامة المحدث الأشهر ، ولد في بغداد سنة ٢١٣ وقصد الكوفة فتعلم على أئمتها ونبغ فيها ثم عاد الى بلده .

تلقى العلم عن ابي حاتم السجستاني سهل بن محمد البصري النحوي اللغوي (— ٢٥٥) وعن اسحق بن ابرهيم بن راهويه المحدث الفقيه الراوية (— ٢٣٨) وغيرهما وكان فاضلاً بارعاً في علوم اللغة والنحو والشعر متفنناً في العلوم والآداب وله كتب جليلة مشهورة ، قال الخطيب البغدادي والجلال السيوطي : هو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة منها (غريب القرآن) و (غريب الحديث) و (مشكل القرآن) و (مشكل الحديث) و (أدب الكتّاب) و (عيون الأخبار) و (كتاب المعارف) و (اعراب القرآن) و (جامع النحو) الكبير والصغير . و (المسائل والأجوبة) وغيرها[1] .

وأبو حنيفة : احمد بن داود الدينوري (— ٢٨٢) الرياضي الأديب الكاتب اللغوي أخذ العلم عن أئمة البلدين والكثير عن ابن السكيت . وكان من نوادر العلماء الذين جمعوا بين آداب العرب وحكم الفلاسفة .

قال السيوطي في البغية : كان نحوياً لغوياً مع الهندسة والحساب وكان من نوادر الرجال وكان راوية ثقة ورعاً زاهداً أخذ عن الكوفيين والبصريين وأكثر عن ابن السكيت صنف كتاب (لحن العامة) و (الشعر والشعراء) و (الأنواء) و (النبات) الذي لم يؤلف مثله في معناه و (تفسير القرآن) و (إصلاح المنطق) و (الفصاحة) و (الجبر والمقابلة) و (البلدان) و (الرد على لغدة)[2] .

---

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ١٧٠ وبغية الوعاة ص ٢٩١ وبروكلمان G.A.L. ١ : ١٢٠ والذيل ١ : ١٨٤

(٢) بغية الوعاة ص ١٣٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان إماماً جليلاً وبليغاً فاضلاً اختلف العلماء مرة في مجلس أبي سعيد السيرافي في التفضيل بينه وبين الجاحظ فسألوه فقال : أنا أحقر نفسي عن الحكم لها وعليها فقيل : لا بد ، فقال : أبو حنيفة أكثر ندارة وأبو عثمان أكثر حلاوة . ومعاني أبي عثمان لائطة بالنفس سهلة في السمع ولفظ أبي حنيفة أعذب وأغرب وأدخل في أساليب العرب [1] وقال أبو حيان التوحيدي في كتاب تقريظ الجاحظ بعد أن أورد كلمة السيرافي : والذي أقول وأعتقد .. أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا الى أن يأخذ الله بزوالها لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، أحدهم هذا الشيخ (الجاحظ) ... والثاني أبو حنيفة ... والثالث أبو زيد احمد بن سهل البلخي ... »

وقد أطنب ياقوت في ترجمته وعدّد فضله وسمى كتبه التي خلفها فارجع اليها إذا شئت [2] وقد نقبنا عن الباقي منها فلم نجد إلا (كتاب النبات) وكتاباً ينسب اليه وهو (الأخبار الطوال) المطبوع المتداول [2] .

وعبد الله بن عبد العزيز أبو موسى الضرير البغدادي (— ٢٥٥ !) كان مؤدب ولد الخليفة المهتدي ، وكان من الأفاضل رحل الى مصر وسكنها وحدث فيها عن أحمد بن جعفر الدينوري وروى عنه يعقوب بن احمد النجيرمي . وله من الآثار (كتاب الفرق) وقد ضاع ، وكتاب في الكتابة والكتّاب عنوانه (كتاب الكتّاب وصفات الدواة والقلم) ومنه نسخة فريدة [3] .

---

(١) معجم الأدباء طبعة دار المأمون ٣ : ٢٧

(٢) راجع بروكلمان ١ : ١٢٣ والذيل ١ : ١٨٧ والفهرست لابن النديم ص ٧٨ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١ : ٤٠٦

(٣) راجع البغية للسيوطي ٢٨٥ وبروكلمان الذيل ١ : ١٨٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأبو علي الحسن بن عبد الله الاصفهاني المشهور بلقب لُغْدَة أو لُكْدَة (— في أواخر القرن الثالث) وهو إمام نحوي بلداني لغوي جليل قال السيوطي: كان إماماً في النحو واللغة جيد المعرفة بفنون الأدب وحسن القيام في القياس أخذ عن الباهلي صاحب الاصمعي، والكرماني صاحب الأخفش وكان يحضر مجلس الزجاج ويكتب عنه ثم خالفه، وكان بينه وبين أبي حنيفة الدينوري مناقضات وكان في طبقته. ولم يكن له في آخر أيامه نظير في العراق (١).

وقال ياقوت: قدم بغداد وكان جيد المعرفة بفنون الأدب حسن القيام بالقياس موفقاً في كلامه وكان إماماً في النحو واللغة وكان في طبقة أبي حنيفة الدينوري ... قال محمد بن اسحق النديم وله من التصانيف (كتاب الرد على الشعراء) نقضه عليه أبو حنيفة الدينوري و (كتاب النطق) و (كتاب الرد على أبي عبيد في غريب الحديث) و (علل النحو) و (المختصر في النحو) و (كتاب الهشاشة والبشاشة) و (كتاب نقض علل النحو) و (كتاب الرد على ابن قتيبة في غريب الحديث) (٢) وقد ضاعت هذه الكتب جميعاً فيما أعلم، ولم يبق من آثاره إلا كتاب (مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب) (٣).

وأبو اسحق ابرهيم بن اسحق بن بشر الحربي (— ٢٨٥) كان قيماً بالأدب، جمّاعة للغة، بارعاً بالنحو، حافظاً للحديث، عالماً بالفقه. أخذ الأدب عن أبي العباس ثعلب وكان ثعلب يقول: ما فقدت ابرهيم الحربي من مجلس نحو أو لغة خمسين سنة. وقال محمد بن صالح: لا نعلم أن بغداد أخرجت مثل ابرهيم الحربي في الفقه والأدب والحديث والزهد. وقال الدارقطني: كان إماماً

(١) بغية الوعاة ص ٢٢٢
(٢) معجم الأدباء ٨ : ١٤٢
(٣) راجع ذيل بروكلمان ١ : ١٨٨ ويعنى الأستاذ المحقق حمد الجاسر بنشره وتحقيقه فيما حدثني وفقه الله.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه ، وفي الحقيقة أنه كان مصنفاً عالماً محيطاً بعلوم عصره بارعاً فيها ، صدوقاً ثقة ، وكان صديقاً للإمام أبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة . روى عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، وأحمد بن حنبل ، وعثمان بن أبي شيبة وطبقتهم وتخرج به جماعة منهم أبو عمرو الزاهد وأبو بكر ابن الأنباري ، والحسين المحاملي وغيرهم . وقد خلف آثاراً جليلة في العربية والحديث والأدب واللغة ولم يبق منها سوى (غريب الحديث) و (اكرام الضيف) وقد طبع بمصر[1] .

وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (— ٣٧٠) كان بارعاً باللغة والعربية والقراءات والأدب ، دخل بغداد سنة ٣١٤ فقرأ على أبي بكر ابن دريد وأبي عبد الله نفطويه وأبي بكر بن الأنباري وأبي عمر الزاهد وابن مجاهد ومحمد بن مخلد العطار . وروى عنه أبو بكر الخوارزمي الأديب الكاتب ، والمعافا بن زكريا . سافر الى حلب واتصل بسيف الدولة الحمداني واختص به وأدّب أولاده وبقي هناك فانتشر تلاميذه وفشا مذهبه ، وجرت له مع أبي الطيب المتنبي مناظرات ومحاورات وحوادث . قال السيوطي : كان من أفراد الدهر في كل قسم من أقسام العلم والأدب وكانت الرحلة اليه من الآفاق ، وقال الداني : عالم بالعربية ، حافظ للغة بصير بالقراءة ثقة مشهور .

ومن آثاره النحوية (الجمل) و (الاشتقاق) و (إعراب ثلاثين سورة من القرآن) و (كتاب ليس) و (الالفات) و (المذكر والمؤنث) و (كتاب القراءات) وغيرها ولم يبق من آثاره هذه إلا (إعراب ثلاثين سورة) و (كتاب الشجر) و (كتاب يَس) و (كتاب الريح) و (شرح ديوان أبي فراس الحمداني)[2] .

---

(١) راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ١٧٨ ونزهة الألباء ص ٢٧٥ وتاريخ الخطيب البغدادي ٦ : ٢٧ وبروكلمان الذيل ١ : ١٨٨

(٢) راجع يتيمة الدهر ١ : ٦٧ ، والنزهة لابن الأنباري ٣٨٣ ، ووفيات ابن خلكان رقم ١٨٦ ومعجم الأدباء ٤ : ٤ وشذرات الذهب لابن العماد ٣ : ٧١ وبروكلمان ١ : ١٢٥ والذيل ١ : ١٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (— ٣٨١) وكان منافساً لابن خالويه وهو أحد العلماء المشهورين المتقنين لعلوم العربية واللغة أخذ عن أبي عمر الزاهد ومحمد بن يحيى الصولي ، أصله من عسكر مكرم تعلم في بغداد ثم قدم الى حلب واتصل بسيف الدولة وعظمت مكانته عنده لفضله وأدبه ، ترجمه السيوطي في البغية فأثنى عليه وقال : « الامام الأوحد له التصانيف الجليلة منها (مراتب النحويين) و (لطيف الاتباع) و (كتاب الابدال) و (شجر الدر) وقد ضاع أكثر مؤلفاته وكان بينه وبين ابن خالويه منافسة ، مات بعد الخمسين وثلاثمائة ، وقال الصفدي : أحد العلماء المبرزين المتفننين بعلمي اللغة والعربية ... أقام بحلب الى أن قتل في دخول الدمستق حلب سنة احدى وثمانين ولم يبق لنا اليوم من كتبه إلا (مراتب النحويين ـ اللغويين ـ) و (شجر الدر) و (كتاب الابدال) [1] .

وأبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني الخراساني البغدادي (٢٩٧ — ٣٨٤) ولد ببغداد وتعلم فيها ونبغ في علوم الأدب والعربية والتاريخ ، وكان رجلاً كريماً يفضل على تلاميذه وأساتيذه . وكانت داره ناديا لأهل العلم وكان من عادته أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر بين الواقع والخيال وكان راوية واسع الرواية صادق اللهجة واسع المعرفة كثير السماع وكان من خيار المعتزلة وصنف كتباً كثيرة في العربية وأخبار الشعراء والأمم والرجال والنوادر وكان حسن التصنيف ويقال إنه كان أحسن تصنيفاً من الجاحظ .

ومن آثاره العديدة الجليلة (المفصل في البيان والفصاحة) و (المقتبس) في أخبار النحويين البصريين ، وأول من تكلم في النحو وأخبار القراء والرواة من أهل البصرة والكوفة ، و (الموشح فيما أنكره العلماء على بعض الشعراء) من

(١) بغية الوعاة ص ٣١٧ وبروكلمان G.A.L. الذيل ١ : ١٩٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكسر واللحن وعيوب الشعر .. وقد عدّ له ياقوت آثاره وعدد أوراقها وهي كثيرة جليلة وقد ضاع أكثرها ولم يبق منها إلا (الموشح) و (أشعار النساء) و (معجم الشعراء) [1] .

وأبو أحمد الحسين بن عبد الله بن سعيد العسكري (— ٣٨٢) وكان إماماً لغوياً نحوياً تعلم ببغداد والبصرة واصبهان ودرس على أبي القاسم البغوي وابن دريد ونفطويه وطبقتهم ، وانتهت اليه رياسة التحديث والإملاء والتدريس بخوزستان ، ورحل اليه الأجلاء ومن أشهر تلاميذه أبو نعيم الاصفهاني وأبو هلال العسكري مؤلف الصناعتين . قال السيوطي : العلامة اللغوي من الأئمة المذكورين في التصرف في أنواع العلوم والتبحر في فنون الفهوم . أكثر وبالغ في الكتابة واشتهر في الآفاق بالدراية وحسن التأليف [2] ومن آثاره الجليلة (كتاب التصحيف) و (المختلف والمؤتلف) . وغيرهما [3] .

وأما المدرسة الأندلسية: فهي المدرسة التي ظهرت في مغرب العالم الاسلامي . وقد دخل الإسلام الى هاتيك الديار منذ فجر الإسلام وانتشرت اللغة العربية بين أهالي تلك الربوع ، ونبغ منهم العلماء والأدباء والشعراء والمصنفون ، وكانوا يقتبسون من أهل المشرق خير ما عندهم وينهجون على منهجهم وقد هاجر نفر من علماء المشرق الى الأندلس والمغرب الاسلامي فكانوا ينشئون هناك الرسائل والكتب ويحلقون الحلقات العلمية وينشرون العلم بين أهل تلك الديار .

وقد نشطت الرحلات العلمية بين أهل المشرق الاسلامي وأهل المغرب فازدهرت الحركة العلمية في الأندلس وبلاد المغرب وقد ظهر من المغاربة والأندلسيين عدد كبير من العلماء وبخاصة في النحو . وقد اهتم هؤلاء النحويون بمباحث الخلافات

(١) معجم الادباء ١٨ : ٢٦٨ وبروكلمان G.A.L الذيل ١ : ١٩٠ — ١٩١
(٢) بغية الوعاة ص ٢٢١
(٣) بروكلمان الذيل ١ : ١٩١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النحوية بين المدرستين الكوفية والبصرية ثم المدرسة البغدادية ، وتنافسوا في أقوال هذه المدارس ، واختاروا لأنفسهم مذهباً خاصاً عرف بالمدرسة الأندلسية وقد كانت هذه المدرسة تختار أفضل الأقوال من بين المدارس الثلاث ، وان كان جل اعتمادها على المدرسة البصرية .

وقد ظل المغاربة والأندلسيون يقتفون آثار المدارس الشرقية الى أن نبغ في ديارهم العلامة الإمام أبو العباس احمد بن عبد الرحمن بن مضاء الأندلسي القرطبي وألف رسالته النحوية الجريئة التي سنتحدث عنها فيما بعد . ثم تتابع النحاة من بعده يؤلفون الرسائل والكتب على طريقتهم الجديدة .

ومن كبار الأئمة الأندلسيين والمغاربة الذين كان لهم أثر واضح في هذا المذهب الجديد :

أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) وكان من أعلم الناس في عصره بنحو البصرة ، وأحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر ، تعلم في البصرة ثم في بغداد ، وقرأ على ابن درستويه والزجاج والأخفش الصغير ونفطويه وابن دريد وابن السراج وجحظة وطبقتهم ثم خرج من بغداد في سنة ٣٢٨ فدخل قرطبة في سنة ٣٣٠ وتهافت الناس عليه فقرأوا الأدب والعربية ، وأكرمه أميرها إكراماً عظيماً وصنف له كتاب الأمالي ، وظل هناك الى أن مات .

وخلف آثاراً جليلة في العربية أجلها (الأمالي) و (النوادر) و (المقصور والممدود) و (فعلت وأفعلت) و (البارع في اللغة) وغيرها وقد ضاع أكثرها [1] .

وأبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الاشبيلي القرطبي (— ٣٧٩) وكان إماماً في علوم العربية واللغة ، وكان متقناً للنحو ، أخذ اللغة عن أبي علي القالي وأبي عبد الله الرياحي ، تولى قضاء قرطبة ، وأدب الأمير

(١) راجع معجم الأدباء ٢ : ٣٠١ ، والبغية للسيوطي ١٩٨ ، وجذوة المقتبس للحميدي ١ : ٧٨٣ ، والتكملة لابن الأبار ٣٦٢ ، وابن بشكوال في الصلة رقم ٤ ، ٢٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هشام ولد الخليفة المستنصر بالله الأندلسي ، قال ابن الفرضي : كان أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة وصنف (مختصر العين) و (أبنية سيبويه) و (ما يلحن فيه عوام الأندلس) و (طبقات النحويين) و (الواضح في النحو) قال ياقوت : وبلغني أن أهل الغرب يتنافسون في كتبه خصوصاً كتابه الذي اختصره من كتاب العين لأنه أتمه باختصاره وأوضح مشكله وزاد فيه ما عساه كان مفتقراً اليه [1] .

وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية (— ٣٦٧)

وهو الأديب المؤرخ اللغوي النحوي مولى عمر بن عبد العزيز ، كان من أهل إشبيلية وفيها تعلم على ابن الأغبش وقاسم بن اصبغ وأبي الوليد الأعرج وطبقتهم حتى بلغ رتبة الإمامة في اللغة والعربية والتاريخ والأخبار .

قال ياقوت : كان أعلم أهل زمانه باللغة والعربية إماماً مقدماً فيها ، وأروى أهل عصره للأشعار والأخبار لا يشق في ذلك غباره ولا يلحق شأوه وكان مع ذلك فقيهاً متمكناً حافظاً للحديث والآثار غير أنه لم يكن له في ذلك أصول يرجع اليها فلم يكن ضابطاً للرواية ، ولما دخل أبو علي القالي الأندلس اجتمع به وكان يبالغ في تقديمه وتعظيمه حتى قال له الخليفة المستنصر الحكم : مَن أنبل من رأيته ببلدنا في اللغة فقال : أبو بكر بن القوطية ... وروى عنه الشيوخ والكهول وطال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة ، ومن تصانيفه (كتاب تصاريف الأفعال) وهو أول مصنف في ذلك ثم تبعه ابن القطّاع السعدي فوضع كتابه على منواله و (المقصور والممدود) جمع فيه وأوعى فأعجز من بعده عن أن يأتوا بمثله وفاق من تقدمه و (شرح أدب الكتاب) وغيرها من الكتب ولكن أكثرها قد فقد [2] .

(١) راجع معجم الادباء ١٨ : ١٧٩ ، وانباه الرواة للقفطي ، وبغية الوعاة ٨٤ وبروكلمان G.A.L. الذيل ١ : ٢٣٢ .

(٢) راجع معجم الأدباء ١٨ : ٢٨٢ والبغية ص ٨٤ : وابن الفرضي رقم ١٣١٦ والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٦٢ ، والشذرات لابن العماد ٣ : ٦٢ ونفح الطيب للمقري ٤٦٢ وبروكلمان G.A.L. الذيل ١ : ٢٣٢ — ٢٣٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأبو عثمان سعيد بن محمد المعافري القرطبي السرقسطي ابن الحداد (— ٤٠٠)

كان من فضلاء علماء الأندلس وكبار النحاة بارعاً بالعربية والجدل . قال الزبيدي : كان أستاذاً في غير ما فن ، عالماً بالعربية واللغة وكان الجدل أغلب الفنون عليه وكان دقيق النظر جداً ثابت الحجة شديد العارضة حاضر الجواب وله كتب كثيرة منها (توضيح المشكل في القرآن) و (الأمالي) و (كتاب الأفعال) وغير ذلك وقد ضاعت [1] .

وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن المشهور بابن مضاء القرطبي (— ٥٩٢)

كان من أفراد العلماء براعة في العربية واللغة والفقه تولى قضاء الجماعة بقرطبة وكان له تقدم في العربية وآراء فيها خالف فيها غيره من العلماء وكان مقرئاً مجوداً محدثاً مكثراً عارفاً بالأصول ، والكلام ، والطب ، والهندسة والحساب ، وكان متوقد الذكاء ، خلف آثاراً جليلة في النحو والفقه والعقائد [2] وقد ضاع أكثرها ولم يبق من آثاره إلا (كتاب الرد على النحاة) الذي نقد فيه مذاهب نحاة عصره والأقدمين .

قال ابن الزبير : أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء أخذ عن ابن الرماك كتاب سيبويه تفهماً وسمع عليه وعلى غيره من الكتب النحوية واللغوية والأدبية ما لا يحصى وكان له تقدم في علم العربية واعتناء وآراء فيها ومذاهب مختلفة لأصلها .. وقد رد عليه الإمام ابن خروف بكتاب سماه (تنزيه أئمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو) ولما بلغه ذلك قال : نحن لا نبالي بالأكباش النطاحة وتعارضنا أبناء الخرفان .

هؤلاء هم بعض أئمة المدرسة الأندلسية ، ويلاحظ القارئ أننا ذكرنا في آخرهم الإمام ابن مضاء النحوي مع أنه من علماء القرن السادس وهو متأخر عن العصر

(١) بغية الوعاة ص ٢٥٧

(٢) بغية الوعاة ص ١٣٩ وغاية النهاية لابن الجزري ١ : ٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي نؤرخه وهو عصر ابن جني فاننا انما فعلنا ذلك لننبه القارئ الى أن آثار هذه المدرسة وإن كانت قد ضاعت فاننا نجد بعض آثارها لدى هذا النحوي المتأخر .

موقف أبي الفتح بن جني من هذه المدارس الأربع :

هذه هي مدارس النحو الأربع الكبرى وقد كان ابن جني لا يتقيد بواحدة منها ، بل يدرسها جميعاً وينتقي منها ما يروقه أو يرى أنه الصحيح ، وكان يناقش أرباب هذه المدارس وبخاصة أرباب مدرستي البصرة والكوفة ، وكان يرى أن هؤلاء هم أولى العلماء بالمناقشة والبحث[1] ؛ قال في باب القول على إجماع أهل اللغة العربية متى يكون حجة : اعلم أن إجماع أهل البلدين انما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا تخالف المنصوص والمقيس عليه فأما ان لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليك ، وذلك انه لم يرد ممن يُطاع في قرآن ولا سنة انهم لا يجتمعون على الخطأ[2] » فهذا القول يدلك على أنه لا يخالف أئمة المدرستين أو غيرهما إذا كانت لديهم الحجج القوية والأدلة القطعية أما إذا لم يوردوا الحجج ويبرهنوا على ما ذهبوا اليه فلك أن تخالفهم وتناقش أقوالهم لأن إجماعهم ليس إجماعاً ورد به الدين أو أمر به الكتاب والسنة « وانما هو علم منتزع من شعراء هذه اللغة فكل من فُرِق له علم صحيح وطريق نهجه كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره »[3] فليس الخليل بن أحمد ولا أبو عمرو بن العلاء على جلالة قدرهما وسعة علمهما وإجماع الناس على أنهما الإمامان الجليلان اللذان أوتيا العلم الوافر والعقل المستنير ، معصومين من الخطأ أو ممنوعين من الوقوع في الخطل ، وكل إنسان آتاه الله العلم واستطاع أن يهتدي بعقله وبحثه واستقرائه وتحقيقه الى علم جديد وبحث مفيد .

(١) راجع الخصائص الطبعة الأولى ١ : ٣
(٢) راجع الخصائص الطبعة الأولى ١ : ١٩٦
(٣) راجع الخصائص الطبعة الأولى ١ : ١٩٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مذهب ابن جني في النحو : رأيت فيما سبق أن أبا الفتح لم يكن متقيداً بمذهب مخصوص فلا كان بصرياً ولا كوفياً ولا بغدادياً ولا اندلسيا بل كان أمة مستقلاً برأيه وان كان الى مذهب البغداديين أقرب والى آرائهم أميل لأنه تأثر بأستاذه أبي علي الفارسي بعض الشيء ، فهو يذكر في مقدمة كتاب الخصائص أنه بعد أن انكشفت له أسرار اللغة العربية وخصائص دقائقها وسر إتقانها أراد أن يؤلف هذا الكتاب ويجعل للغة العربية ونحوها أصولاً كما جعل العلماء للفقه والكلام أصولاً وانه شرع في ذلك وان علماء الكوفيين والبصريين لم يستطيعوا أن يفعلوا فعله على الرغم من اطلاعهم على تلك الأسرار وعلى محاولتهم عمل بعض الكتب المتعلقة بأصول النحو مثل عمل أبي بكر محمد بن السراج شيخ أستاذه أبي علي الفارسي الذي ألف (مصنفات حسنة وأحسنها وأكبرها كتاب الأصول فانه جمع فيه أصول علم العربية وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب وكان ثقة)[1] .

يقول ابن جني « إن تعريد (أي تهرب) كل من الفريقين البصريين والكوفيين عنه وتحاميهم طريق الإلمام به ، أو الخوض في أدنى أوشاله وخلجه ، فضلاً عن اقتحام غماره ولجه ، إنما كان لامتناع جانبه ، وانتشار شعاعه ، وبادي تهاجر قوانينه وأوضاعه ، وذلك اننا لم نر أحداً من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه فأما كتاب أبي بكر فلم يلمم بما يحسن عليه إلاّ حرفاً أو حرفين في أوله ... على أن أبا الحسن (أي الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (— ٢١١) قد كان صنف في شيء من المقاييس كتيباً اذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أنا نبنا عنه فيه .. »

فأنت ترى من كلامه هذا أنه شديد الاعتزاز بما أبدعه وان أحداً من العلماء

(١) نزهة الألباء لابن الانباري ص ٣١٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السابقين على جلالة قدر كثير منهم لم يحوموا حول حوضه ولم يأتوا بشيء من المباحث التي جاء بها لا يستثنى من ذلك أحد من علماء المصرين ، الكوفيين والبصريين ، يقول في باب القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجة ؟ :

« إن إجماع أهل البلدين انما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا تخالف المنصوص أو المقيس على المنصوص فاذا لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه وذلك انه لم يرد ممن يطاع أمره في قرآن ولا سنة انهم لا يجتمعون على الخطأ كما جاء النص عن رسول الله ﷺ من قوله « أمتي لا تجتمع على ضلالة » وانما هو منتزع من استقراء هذه اللغة ، فكل من فُرق له على علة صحيحة وطريق نهجه كان خليل نفسه ، وأبا عمرو فكره ، إلا أننا مع هذا الذي رأيناه وسوغنا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدم نظيرها وتتالت أواخر على أوائل ... »

الى ذلك الكلام الذي أثبت فيه فضل علم الأوائل من أهل البصرة والكوفة معاً ، وكشف عن جهودهم في صيانة لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، والشعر العربي ، إلا أن هذا لم يمنعه أن يكون لنفسه مذهباً خاصاً به ، ويرى أن قولهم « ما ترك الأول للآخر شيئاً » قول غير صحيح ، كما ذهب اليه الجاحظ وأبو عثمان المازني الذي يقول « إذا قال العالم قولاً متقدماً فللمتعلم الاقتداء به والانتصار له والاحتجاج بخلافه إذا وجد الى ذلك سبيلا » ويورد ابن جني بعد ذلك بعض الأقوال التي خالف فيها قول الأوائل والأواخر ويستدل على صدق نظريته قائلاً « فما جاز خلاف الإجماع الواقع فيه منذ بديء هذا العلم والى آخر هذا الوقت ما رأيته أنا في قولهم (هذا حجر ضب خرب) فهذا يتناوله آخر عن أول وتالٍ عن ماضٍ على أنه غلط من العرب لا يختلفون فيه ولا يتوقون عنه ، وانه من الشاذ الذي لا يحمل عنه ولا يجوز ردّ غيره اليه ، وأما أنا فعندي ان في القرآن مثل هذا الموضع نيفاً على ألف موضع وذلك انه على حذف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المضاف لا غير فاذا حملته على هذا الذي هو حشو الكلام من القرآن والشعر ساغ وسلس وشاع وقبل[1] » .

وهو أيضاً ينتقد البغداديين كما انتقد البصريين والكوفيين فيقول في باب (إسقاط الدليل) : « ومن ذلك قول البغداديين ان الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره نحو زيد مررت به ، وأخوك أكرمته فارتفاعه عندهم إنما هو لأن عائداً عاد عليه فارتفع بذلك العائد ، وإسقاط هذا الدليل ان يقال لهم فنحن نقول زيد هل ضربته ؟ وأخوك متى كلمته ؟ ، ومعلوم أن مابعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله[2] » فهذا يدلك على أن أبا الفتح إنما هو أمة مستقل في رأيه ينفش عن الحقيقة فحيث وجدها فثم مذهبه . وهو لا يقنع إلا بالبراهين والأدلة الثابتة فمن كانت أدلته أقوى كان هو الموثوق بقوله وإلا فلا ، ويظهر أنه كان على الرغم مما سبق ميالاً الى مذهب البصريين شديد الانتقاد لمذهب الكوفيين ، فهو ميال الى البصريين مثل شيخه أبي علي الفارسي ، وهو يعتمد مذهبهم ويجري في كتبه ومباحثه وأقواله على طريقتهم ، الا إذا وجد الحجة التي تجعله يميل عن مذهبهم الى مذهب غيرهم أو إلى مذهب جديد .

يقول في سر الصناعة في (حرف النون) في صدد قول الشاعر :

أن تهبطين بلا قو م يرتعون من الطِلاح

ان الكوفيين يقولون إن هذا تشبيه (أن) بـ (ما) التي في معنى المصدر « فأما قولنا نحن فانه أراد (أنّ الثقيلة) وخففها ضرورة وتقديره انك تهبطين » .

ويقول في سر الصناعة أيضاً في (حرف الكاف) في قولهم (أنت كزيد) ان الكاف اسم تقديره أنت مثل زيد وان هذا قول أصحابنا وان كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون في هذا النحو الذي هو غير مشتق من الفعل ضمير

---

(١) الخصائص الطبعة الاولى ١ : ١٩٦ - ١٩٩

(٢) الخصائص الطبعة الاولى ١ : ٢٠٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما يكون من المشتق » . ولا شك في أنه يقصد بقوله (أصحابنا) أئمة البصرة فان هذا هو مذهبهم .

وصفوة القول ان أبا الفتح لم يكن بصرياً خالصاً ، ولا كوفياً خالصاً ولا بغدادياً خالصاً ولكنه كان ينتقي القول الذي يراه جديراً بالانتقاء ، وانه قال أقوالاً في الصرف واللغة والنحو انفرد بها والشواهد على ذلك جد كثيرة .

فما انفرد به في النحو : تجويز إظهار متعلق الظرف الواقع خبراً في الكون العام مثل قولك محمد عندك ، قال ابن يعيش في شرح مفصل الزمخشري : « اعلم أنك لما حذفت الخبر الذي هو (استقر) أو (مستقر) وأقمت الظرف مقامه على على ما ذكرنا صار الظرف هو الجر والمعاملة معه وهو مغاير المبتدأ في المعنى ونقلت الضمير الذي كان في الاستقرار الى الظرف وصار مرتفعاً بالظرف كما كان مرتفعاً بالاستقرار ثم حذفت الاستقرار وصار أصلاً مرفوضاً لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه بالظرف وصرح ابن جني بجواز إظهاره والقول عندي في ذلك ان بعد حذف الجر الذي هو الاستقرار ونقل الضمير الى الظرف لا يجوز إظهار ذلك المحذوف [1] » .

ومما انفرد به أيضاً في النحو قوله في علة المنع من الصرف « إن [2] الأسباب المانعة من الصرف تسعة واحد منها لفظي وهي شبه الفعل لفظاً نحو أحمد ويَرْمَعْ وتَنْضُبْ وإثمد وأبلُم وبَقَم واستبرق [3] ، والثمانية الباقية كلها معنوية ، كالتعريف والوصف والعدد والتأنيث وغير ذلك ... » مع أن النحويين يقولون إن السبب المعنوي هو العلمية والوصفية والباقي هو أسباب لفظية .

ومما انفرد به إدخاله (قد) على الفعل المنفي وقد استعمل هذا الاستعمال

---

(١) شرح المفصل ، المطبعة المنيرية ١ : ٩٠

(٢) الخصائص الطبعة الأولى ١ : ١١٤

(٣) اليرمع هو الحجارة الرخوة الطرية ، والتنضب شجر معروف في الحجاز ، والابلم هو أغصان المقل ؛ والبقم شجر يصنع بورقه . والاستبرق : حرير سميك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كثيراً في كتبه كالخصائص وسر الصناعة فمن ذلك قوله في الخصائص « كما ان القول قد لا يتم معناه إلا بغيره »[1] وهذا أمر ما قال به النحويون قبله ولا أجازه من جاء بعده .

ومن ذلك إجازته إدخال أداة التعريف على (بعض) كقوله (فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض[2]) وقد منع النحويون المتأخرون هذا مع أن سيبويه قد استعمله في كتابه .

مذهبه في اللغة والتصريف : تعمق ابن جني في حفظ كلام العرب ورواية لغتهم والغوص عن أسرار أساليبهم حتى أشربت لغتهم بروحه وقد ظهر هذا في بحوثه الصرفية التي تتجلى في كتابه « سر الصناعة » وفي المباحث اللغوية العديدة التي حفظها لنا اللغويون المتأخرون في كتبهم كابن سيده وابن منظور وغيرهما من أئمة اللغة ، وان كانت كتبه قد ضاعت .

وابن جني كما يتجلى لنا من قراءة كتب الصرفيين واللغويين المتأخرين الذين جاءوا بعده ، هو إمام مجدد ذو أثر عميق في هذه اللغة ، أسبغ عليها ثوباً جديداً بمباحثه الصرفية ، واللغوية ، وقد ظهرت صور من ذلك الأثر في كتب كبار المؤلفين الذين جاءوا من بعده وبخاصة ابن سيده علي بن أحمد الإمام اللغوي (— ٤٥٨) فقد تأثر هذا الإمام الكبير اللغوي بمباحث ابن جني وبألفاظه وحفظها حتى انه ربما أورد ألفاظه وعباراته دون أن يشير اليه أو يعزو في كتابيه الجليلين (المخصص) و (المحكم) . حتى ان ابن منظور الذي جاء بعد ابن سيده ينقل كلام ابن سيده وينسبه اليه مع أنه لفظ ابن جني .

واللوم في هذه القضية يقع على ابن منظور لا على ابن سيده فان ابن سيده

(١) الخصائص الطبعة الثانية ١ : ٢٠
(٢) الخصائص الطبعة الثانية ١ : ٦٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رجل أعمى ألف هذه الكتب الجليلة في اللغة من إملائه فلا ضير عليه أن يهمل ذكر اسم ابن جني ، ولكنّ الضير على ابن منظور الذي جاء بعده ونقل أقواله ورأى خطأ ابن سيده ولم ينبه عليه .

وعلى هذا فلسنا نشاطر الأستاذ محمد علي النجار قوله في مقدمة الطبعة الثانية من الخصائص : (فتح ابن جني في العربية أبواباً لم يتسنّ فتحها لسواه .. وكان بذلك إماماً يحتاج إلى أتباع يمضون في سبيله ... على انه أتيح له لغوي كبير أغار على فوائده وبحوثه اللغوية ذلك هو ابن سيده ... وهو كثيراً ما يغفل العزو اليه في كتابه المحكم ويأتي صاحب اللسان فينقل ما في ابن سيده وينسبه اليه وهو لابن جني) [1] فنحن نعذر ابن سيده للسبب الذي ذكرناه آنفاً ولكننا لا نجد لابن منظور أي عذر .

والحق ان كتب ابن جني قد كانت معيناً لأئمة اللغة الذين كتبوا من بعده وفي طليعتهم ابن سيده ، وابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة (— ٤٦٦) وابن الأثير في المثل السائر (— ٦٣٣) ، وابن منظور في اللسان ، والسيوطي في الأشباه والنظائر (— ٩١١) وغيرهم . واننا لو رحنا نفتش خلال العصور منذ القرن الرابع للهجرة حتى هذا القرن عن إمام كان له مثل أثر ابن جني فيمن جاء بعده لم نجده فان كتبه بأسلوبها المشرق وأفكارها المتسقة قد بلغت الأوج ، فلا كتب سيبويه ولا أبي علي الفارسي ولا أبي بكر بن السراج قد بلغت المنزلة التي بلغتها كتب ابن جني رحمه الله وجزاه عن هذه اللغة ما يستحقه .

(للبحث صلة) الدكتور محمد أسعد طلس

(١) مقدمة طبعة الخصائص الثانية ١ : ٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net